سورة البلد مكية

وآياتُها عِشرونَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

القولُ في تأويلِ قولِه تعالى :

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾

يقولُ تعالى ذِكْرُهُ : أُقْسِمُ يا محمَّد بهذا البلدِ الحرامِ ، وهو مكَّة ، وكذلك قال أهل التأويل .

وقولُه : « وَأَنْتَ حِلٌّ بهذا البَلَدِ » يعني : بمكَّةَ ، يقولُ جَلَّ ثناؤه لنبيِّه محمَّد صلى الله عليه وسلم : وأنتَ يا محمَّد حِلٌّ بهذا البلدِ ، يعني بمكةَ ؛ يقولُ : أنتَ به حَلالٌ تَصْنَعُ فيه مِنْ قَتْل مَنْ أردتَ قَتْلَهُ ، وأسْرِ مَن أردتَ أَسْرَه ، مُطْلَقٌ ذلك لكَ . يقالُ منه : هو حِلٌّ ، وهو حَلالٌ ، وهو حَرَمٌ ، وهو حَرامٌ ، وهو مُحِلٌّ ، وهو مُحْرِمٌ ، وأَحْلَلْنا ، وَأَحْرَمْنا . وبنحو الذي قلنا في ذلك قالَ أهلُ التأويلِ .

وقولُه : « وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ » يقولُ تعالى ذِكْرُهُ : فأقسمَ بوالدٍ وبوَلَدِهِ الذي وَلَدَ . ثم اختلفَ أهلُ التأويلِ في المعني بذلك مِنَ الوالِدِ وما وَلَدَ ، فقال بعضهم : عني بالوالدِ : كُلُّ والِدٍ ، وما وَلَدَ : كُلُّ عاقِرٍ لم يَلِدْ .

وقالَ آخرونَ : عُنِيَ بذلك : آدمُ وولَدُه .

وقالَ آخرونَ : عُنِيَ بذلك : إبراهيمُ وما وَلَدَ .

والصوابُ مِن القول في ذلكَ : ما قالَه الذي قالُوا : إنَّ اللهَ أقسمَ بكلِّ والِدٍ وولَدِه ، لأنَّ اللهَ عَمَّ كلَّ والِدٍ وما وَلَدَ . وغيرُ جائزٍ أنْ يخصَّ ذلكَ إلا بحجَّةٍ يجبُ التسليمُ لها مِن خبرٍ ، أو عَقْلٍ ، ولا خبرٌ بخصوصِ ذلك ، ولا بُرهانٌ يجبُ التسليمُ له بخصوصِه ، فهو على عُمُومِه كما عَمَّه .

وقولُه : « لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ في كَبَدٍ » وهذا هو جَوابُ القَسَمِ . واختلفَ أهلُ التأويلِ في تأويلِ ذلك ، فقالَ بعضُهم : معناه : لقد خَلَقْنا ابنَ آدمَ في شِدَّةٍ وعناءٍ ونَصَبٍ .

وقالَ بعضُهم : خُلِقَ خَلْقاً لم نَخْلِقْ خَلْقَهُ شيئاً .

وقالَ آخرونَ : بل معنى ذلك : أنَّه خُلِقَ في السَّماءِ .

وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ : قولُ مَن قالَ : معنى ذلك أنَّه خُلِقَ يُكابدُ الأمورَ ويُعالِجُها ، فقولُه : « في كَبَدٍ » معناه : في شِدَّةٍ . وإنما قلنا : ذلك أولى بالصوابِ ، لأنَّ ذلك هو المعروفُ في كلامِ العَرَبِ مِن معاني الكَبَدِ ؛ ومنه قولُ لبيد بن ربيعة :

عَيْنِ هَلاَّ بَكَيْتِ أَرْبَدَ إذ * قُمْنا وَقامَ الخُصُومُ في كَبَدِ [1]

وقولُه : « أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ » ذُكِرَ أنَّ ذلك نَزَلَ في رَجُلٍ بعينِه مِن بني جُمَحٍ ، كان يُدْعَى أبا الأَشَدَّين , وكانَ شديداً ، فقالَ جَلَّ ثناؤه : أيحسبُ هذا القويُّ بَجَلْدِهِ وقُوَّتِه ، أنْ لن يقهرَه أحدٌ ويغلِبَه ، فاللهُ غالبُه وقاهِرُه .

وقولُه : « يَقُولُ أَهْلَكْتُ مالاً لُبَداً » يقولُ هذا الجليدُ الشديدُ : أهلكتُ مالاً كثيراً ، في عداوةِ محمَّد صلى الله عليه وسلم ، فأنفقْتُ ذلك فيه ، وهو كاذِبٌ في قولِه ذلك ؛ وهو فعل من التلبُّد , وهو الكثير ، بعضُه على بعضٍ ، يُقالُ منه : لَبَدَ بالأرضِ يَلْبُدُ : إذا لَصَقَ بها . وبنحو الذي قلنا في ذلكَ قالَ أهلُ التأويلِ .

واختلفت القُرَّاءُ في قراءةِ ذلكَ ، فقرأتْه عامَّةُ قُرَّاءِ الأمصارِ : « مَالاً لُبَداً » بتخفيفِ الباءِ . وقرأه أبو جعفر بتشديدها . والصواب بتخفيفِها ، لإجماعِ الحجةِ عليه .

وقولُه : «أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ » يقولُ تعالى ذكرُه : أَيَظُنُّ هذا القائِلُ « أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدَاً » أَنْ لم يَرَهُ أحدٌ في حال إِنْفاقِهِ ما يَزْعُمُ أَنَّه أنفقه .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦﴾

---

[1] البيت للبيد يرثي أخاه « أربد » وقد هلك على دين الجاهلية .

يقولُ تعالى ذكرُه : ألم نجعلْ لهذا القائِلِ « أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدَاً » عينينِ يُبصِرُ بهِما حُجَجَ اللهِ عليه ، ولساناً يُعَبِّرُ به عَنْ نَفْسِه ما أَرادَ ، وشفتينِ ، نعمةً مِنَّا بذلك عليه .

وقولُه : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » يقولُ تعالى ذِكْرُهُ : وهديناه الطريقينِ ؛ ونَجْدٌ : طَرِيقٌ في ارتفاعٍ . واختلفَ أهلُ التأويلِ في معنى ذلك ، فقالَ بعضُهم : عُنِيَ بذلك : نَجْدُ الخيرِ ، ونَجْدُ الشَّرِّ ، كما قالَ : « إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً » .

وقالَ آخرونَ : بل معنى ذلك : وهديناه الثدْيَيْنِ : سَبيلَي اللبنِ الذي يتغذَّى به ، وينبتُ عليه لحمُه وجسمُه .

وأَوْلى القولينِ بالصوابِ في ذلك عندَنا : قولُ مَن قالَ : عُنِيَ بذلك طريقُ الخيرِ والشرِّ ، وذلك أنه لا قولَ في ذلك نَعْلَمُه غيرَ القولينِ اللذينِ ذكرنا ؛ والثديان ، وإن كانا سبيلَي اللبنِ ، فإنَّ اللهَ تعالى ذكرُه إذْ عَدَّدَ على العبدِ نِعَمَه بقولِه : « إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ » إنما عَدَّدَ عليه هدايتَه إيَّاه إلى سبيلِ الخيرِ مِن نِعَمِه ، فكذلكَ قولُه : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ » .

وقولُه : « فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ » يقولُ تعالى ذِكْرُهُ : فلم يركَب العقبةَ ، فيقطعَها ويجوزَها . وذُكِرَ أنَّ العقبةَ : جبلٌ في جهنَّمَ . وأفْرَد قولَه : « فَلا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ » بذْكِرِ « لا » مَرَّةً واحدةً ، والعربُ لا تكادُ تُفْرِدُها في كلامٍ في مثلِ هذا الموضعِ ، حتى يُكَرِّرُوها مَعَ كلامٍ آخرَ ، كما قالَ : « فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى » « وَلا خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ » . وإنما فَعَلَ ذلكَ كذلكَ في هذا الموضعِ ، اسْتِغْناءً بدلالَةِ آخِرِ الكلامِ على معناه ، مِن إعادَتِها مرةً أُخْرى ، وذلك قولُه إذ فَسَّرَ اقتحامَ العقبةِ ، فقالَ : « فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ ثُمَّ كانَ مِن الذينَ آمَنُوا » ففسَّرَ ذلكَ بأشياءَ ثلاثةٍ ، فكانَ كأنَّه في أول الكلامِ ، قالَ : فلا فَعَلَ ذا ولا ذا ولا ذا . وتأوَّلَ ذلك ابنُ زيد ، بمعنى : أفلا ، ومَن تأوَّلَه كذلك ، لم يكنْ به حاجةٌ إلى أنْ يزعمَ أنَّ في الكلامِ متروكاً .

وقولُه : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ » يقولُ تعالى ذكرُه : وأيُّ شيءٍ أشعَرَكَ يا محمَّد ما العقبةُ .

ثم بيَّنَ جَلَّ ثناؤه له ، ما العقبةُ ، وما النجاةُ منها ، وما وجْهُ اقتحامِها ؟ فقالَ : اقتحامُها وقطعُها فَكُّ رقبةٍ مِن الرِّقِّ ، وَأَسْرِ العُبودَةِ .

حدثنا بشر ، قال : ثنا يزيد ، قال : ثنا سعيد ، عن قتادة ، قال : ثنا سالم ابن أبي الجعد ، عن معدان ابن أبي طلحة ، عن أبي نجيح ، قال : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ : « أَيَّما مسلمٍ أعتقَ رَجُلاً مُسْلِماً ، فإنَّ اللهَ جاعِلٌ وفاءَ كلِّ عَظْمٍ مِن عِظامِهِ ، عَظْماً مِن عِظامِ مُحَرِّرِه مِن النارِ ؛ وأيما امرأةٍ

مُسْلِمةٍ أعتقت امرأةً مُسْلمةً ، فإنَّ اللهَ جاعِلٌ وفاءَ كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظامِها ، عَظْماً مِن عِظامِ مُحَرِّرِهَا مِن النَّارِ » [٢] .

وقولُه : « ثُمَّ كانَ مِنَ الذِينَ آمَنُوا » فِعْلٌ ، والعَربُ تُؤْثِرُ رَدَّ الأسماءِ على الأسماءِ مثلِها ، والأفعالِ على الأفعالِ ، ولو كانَ مجيءُ التنزيلِ ثُمَّ إنْ كانَ مِن الذينَ آمَنُوا ، كانَ أَحْسَن ، وأشْبَه بالإطعامِ والفَكِّ مِن ثُمَّ كانَ ، ولذلك قلتُ : « فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ أَطْعَمَ » أَوْجَهُ في العربيةِ مِنَ الآخَرِ ، وإنْ كانَ لِلآخَرِ وجهٌ معروفٌ ، ووجُهُه « أن » تُضْمَرَ أَنْ ثُمَّ تُلْقَى ، كما قالَ طَرفةُ بن العبدِ :

ألا أيُّهَاذا الزَّاجري أَحْضرُ الوَغَى * وأَنْ أَشْهَدَ اللَّذاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِي

بمعنى : ألا أيهاذا الزاجري أنْ أَحْضرَ الوغى . وفي قولِه : أَنْ أَشْهَدَ الدلالةُ البينةُ على أنها معطوفةٌ على أَنْ أُخْرَى مثلِها ، قد تقدَّمَتْ قبلَها , فذلك وجهُ جوازِه . وإذا وُجِّهَ الكلامُ إلى هذا الوجهِ كانَ قولُه : « فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعَامٌ » تفسيراً لقولِه : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ » كأنَّه قيلَ : وما أدراكَ ما العقبةُ ؟ هي فَكُّ رقبةٍ « أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ » كما قالَ جَلَّ ثناؤه : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ » ، ثمَّ قالَ : « نَارٌ حَامِيَةٌ » مفسِّراً لقولِه : « فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ » ، ثم قالَ : وما أدراكَ ما الهاويةُ ؟ هي نارٌ حاميةٌ .

وقولُه : « أَوْ أَطْعَمَ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ » يقولُ : أو أَطْعَمَ في يومٍ ذي مجاعةٍ ، والساغِبُ : الجائِعُ . وبنحو الذي قلنا في ذلك قالَ أهلُ التأويلِ .

وقولُه : « يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ » يقولُ : أو أَطْعَمَ في يومِ مجاعةٍ صغيراً لا أَبَ له مِن قرابتِه ، وهو اليتيمُ ذو المقربةِ ؛ وعُنِيَ بذي المقربة : ذا القَرابةِ .

وقولُه : « أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ » اختلفَ أهلُ التأويلِ في تأويلِ قولِه : « ذا مَتْرَبَةٍ » فقالَ بعضُهم : عُنِيَ بذلك : ذو اللُّصوقِ بالترابِ .

---

[٢] حديث صحيح ، أخرجه أبو داود عن أبي نجيح السلمي ، عمرو بن عبسة ، قال : حاصَرْنا مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بقصرِ الطائفِ – قال معاذ سمعت أبي يقول بقصر الطائف ، بحصن الطائف كل ذلك – فسمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : من بلغَ بسهمٍ في سبيل الله عزَّ وجلَّ فله درجةٌ ، وساق الحديثَ ، وسمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أيما رجلٍ مسلمٍ أعتقَ رجلاً مسلماً فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جاعلٌ وقاءَ كل عظمٍ من عظامِه عظماً من عظامِ محررِه من النار ، وأيما امرأةٍ أعتقت امرأةً مسلمةً فإنَّ اللهَ جاعلٌ وقاءَ كل عظمٍ من عظامِها عظماً من عظامِ محرِّرِها من النارِ يومَ القيامةِ » . انظر (صحيح الجامع ، ٢٧٣٦) ، وكذلك أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٤/٤) ، وابن المبارك في الجهاد (٢٢١) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قالَ : « مَن أعتقَ رقبةً أعتقَ اللهُ بكلِّ عضوٍ منها عضواً مِن أعضائِه مِن النارِ حتَّى فَرْجَهُ بفَرْجِهِ » متفق عليه ، أخرجه البخاري (٦٣٣٧) ومسلم (١٥٠٩) في صحيحيهما ، وكذلك أخرجه أبو عوانة (٤٨٢٤) وغيرهم .

حدثنا ابن بشار ، قال : ثنا عبد الرحمن ، قال : ثنا سفيان ، عن حصين وعثمان بن المغيرة ، عن مجاهد عن ابن عباس « أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ » قالَ : الذي ليسَ له شيءٌ يقيهِ مِن الترابِ [٣] .

وقالَ آخرونَ : بل هُو المحتاجُ ، كانَ لاصِقاً بالترابِ ، أو غيرَ لاصِقٍ ؛ وقالوا : إنما هو مِن قولِهم : تَرُبَ الرجلُ : إذا افتقرَ .

وقالَ آخرونَ : بل هو ذو العِيالِ الكثيرِ الذينَ قد لصقوا بالترابِ مِن الضُّرِّ وشِدَّةِ الحاجَةِ .

وأَوْلى الأقوالِ في ذلكَ بالصحَّةِ قولُ مَن قالَ : عُنِيَ به : أو مِسْكِيناً قد لصقَ بالترابِ مِن الفقرِ والحاجةِ ، لأنَّ ذلك هو الظاهِرُ مِن معانيهِ . وأنَّ قولَه : « مَتْرَبَةٍ » إنما هِيَ « مَفْعَلَة » مِن تَرُبَ الرجلُ : إذا أَصابَهُ الترابُ .

القول في تأويل قوله تعالى :

ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

يقولُ تعالى ذكرُه : ثمَّ كانَ هذا الذي قالَ : « أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً » مِن الذينَ آمنوا باللهِ ورسولِه ، فيؤمن معَهم كما آمنوا « وتَواصَوْا بالصَّبْرِ » يقول : ومِمَّن أَوْصى بعضُهم بعضاً بالصبرِ على ما نابَهم في ذاتِ اللهِ « وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ » يقولُ : وأوصى بعضُهم بعضاً بالمرحمةِ .

وقولُه : « أُولَئِكَ أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ » يقولُ : الذينَ فَعَلوا هذا الأَفعالَ التي ذكرتُها ، مِنْ فَكِّ الرقابِ ، وإطْعامِ اليتيمِ ، وغيرِ ذلكَ ، أصحابُ اليمينِ ، الذينَ يؤخَذُ بهم يومَ القيامةِ ذاتَ اليمينِ إلى الجنةِ .

وقولُه : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا بآياتِنا » يَقُولُ : وَالذينَ كَفَرُوا بأَدِلَّتِنا وأَعْلامِنا وحُجَجِنا مِن الكُتُبِ والرسُلِ وغيرِ ذلكَ « هُمْ أَصْحَابُ المَشْأَمَةِ » يقولُ : هم أصحابُ الشِّمالِ يومَ القيامةِ الذينَ يؤخذُ بهم ذاتَ الشِّمالِ . وقد بيَّنا معنى المشأمةِ ، ولِمَ قيلَ لليَسارِ المشأمةُ فيما مَضى ، بما أغنى عن إعادتِه في هذا الموضع [٤] .

---

[٣] إسناده صحيح ، انظر تغليق التعليق(٣٦٩/٤) لابن حجر العسقلاني .

[٤] قال المصنف رحمه الله في تأويله للآية « وأصحابُ المشأمَةِ ما أصحابُ المشأمةِ » (الواقعة : ٩) : وأصحابُ الشمال الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، والعربُ تسمي اليد اليُسرى : الشؤمى .

وقولُه : « عَلَيْهِم نارٌ مُؤْصَدَةٌ » يقولُ تعالى ذكرُه : عليهم نارُ جهنمَ يومَ القيامةِ مُطْبَقَةٌ ؛ يُقالُ منه : أَوْصَدْتُ وآصَدْتُ . وبنحوِ الذي قلنا في ذلكَ قالَ أهلُ التأويلِ .

آخرُ تفسيرِ سورةِ لا أُقْسِمُ بهذا البَلَدِ